مصطلح «العلامة» في التجربة النقدية عند «عبد الملك مرتاض»

د. عبد السّلام مرسلي، جامعة الدكتور طاهر مولاي بسعيدة، الجزائر.

ملخّـــص

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى إبراز جهود الباحث «عبد الملك مرتاض» في تأصيل المصطلح اللساني، وتوطينه في المشهد النقدي الجزائري، اعتمادا على ما حبل به التراث العربي، وعلى ما طرحته الحداثة الغربية في ساحتها النقدية. وقد استحضرنا في هذا المقام مصطلح «العلامة اللسانية» كمثال في هذه الدّراسة.

الكلمات المفتاحية: تأصيل - المصطلح اللســـــاني- توطين - المشهد النقدي- التراث - الحداثة - العلامة اللّسانية.

Résumé

Le présent article a pour but de mettre en évidence les efforts d'Abdelmalek Mertad pour enraciner les termes linguistiques et l'ancrer dans la scène critique algérienne, à partir de ce que le patrimoine arabe a conçu, et de ce que le modernisme occidental a présenté dans sa sphère critique. Dans ce contexte, nous avons ciblé le terme «signe linguistique» comme cas dans cette étude.

***Mots-clés*:** Enracinement, terme linguistique, localisation, scène critique, patrimoine, modernisme, signe linguistique.

تعتبر إشكالية تأصيل المصطلحات اللسانية والسيميائية في طليعة انشغالات النّاقد عبد المالك مرتاض، وأولى هذه المصطلحات نجد العلامة (السّمة)؛ والّتي هي في الأصل مجرد إشارات أو ألفاظ أو عناصر منعزلة. لقد عرف هذا المفهوم في ثقافتي الإغريق والعرب، وتعاملوا معه في جملة من المظاهر «أهمّها الإشارة، واصطناع اللّون، وإقامة الطّقوس المتمخضة لممارسة الشّعائر الدّينية، والتّعبير عن مناسبات الأفراح، وإبداء التّألم والتّوجع لدى حدوث الأتراح.»[1]

فمن خلال تنقيب الباحث عن المعنى المعجمي لمفردتي «السّمة» و«العلامة» وجد «السّمة» «signe» آتية من مادة (و س م)، والوسم هو إحداث تأثير أو عَلْم: بِكيّ، أو وشم، أو قطع...و»كلّ ما يجري من هذا التّركيب يدلّ على إحداث علامة تغتدي صفة بادية للعيان-عارضة أو دائمة- في صفحة سوائها.» [2]

أمّا مفردة (العلامة) فهي مأخوذة من مادة (ع لَ م)، وهي آتية «من (العلامة والعلم). بمعنى الجبل، ومنه أخذوا الثوب لدى القصار حتى تتميز الأثواب بعضها عن بعض.»[3] وعلى الرّغم من استخلاص أوجه الاختلاف من قبل عبد الملك مرتاض وإقراره بأنّ التّركيبين (وسم- علَم) متقاربان في الأصل العربي، وعبر المعاجم المؤسسة، فإنّ ترجمة المصطلح الأجنبي (signe-sign) إلى العربية تباينت بين النّقاد والسّيميائيين العرب واستعصى الأمر عليهم «فإذا منهم من يصطنع (السّمة) وهم قليل، وإذا منهم من يصطنع (العلامة)، وهم خلق كثير، بل ألفينـــــــــا منهم من يستعمل (الدّليل) مقابلا للمصطلح الأجنبي، والاستعمال الأخير مزعج إلى حدّ الإيذاء، ومحير إلى درجة السّمود.»[4]

ولقد أحصى الباحث «مولاي علي بوخاتم» النّقاد والسّيميائيين العرب الّذين دعوا إلى التّسوية بين التّركيبين (وسم-علم) في معجم «بسام بركة» و«معجم رشاد الحمزاوي»، والنّقاد الّذين آثروا مصطلح «العلامة» كـ: «محمد مفتاح» و«عبد السلام المسدي» و«سيزا قاسم» و«نصر حامد أبو زيد»، أمّا النّقاد الّذين آثروا مصطلح «دليل» فمنهم «محمد بنيس» و«حنون مبارك» و«عبد القادر الفاسي الفهري.»[5] والناقد عبد المالك مرتاض يخالف هؤلاء جميعا مصطنعا مصطلح (السّمة) تحت جملة من المبررات وهـــــي:

1 - إنّ «العلامة» استعملت في الفكر النّحويّ العربيّ بمعنى لاحقة تلحق فعلا من الأفعال، أو اسما من الأسماء- دون الحروف- فيستحيل من حال إلى حال أخرى للنّهوض بوظيفة دلالّية يقتضيها المقام، ولعلّ اصطناع ذلك المصطلح النّحوي في أصله في

المفاهيم السيميائية، على عهدنا هذا، قد يزيد هذا الأمر اضطرابا وِالتباسًا.

2 - يبدو لنا، ولو من باب الحاسة الذّوقية فقط، من خلال تلقّي المعنى المتولّد عن اصطناع «السّمة»، أنّه أدنى ما يكون إلى ما يُطلِق عليه السّيميائيون الغربيون مصطلح «signe»، من مصطلح «العلامة» الّذي ربّما انصرف إلى المعنى المادي فتمخض له.

3 - إنّ إطلاق «السّمة» على مفهوم «signe»، عوضا عن مصطلح «العلامة» ولنكرّر- سيحُلّ لنا مشكلة أخرى من مشكلات المصطلح- وهي أنّنا، حينئذ، نمحّض مصطلح «العلامة» لمفهوم آخر قريب منه وهو ما يُطلَق عليه في الفرنسية[6] La marque.»

إنّ الاقتراح الّذي طرحه النّاقد في العنصر الثّالث، كان بعدما صادفته مشكلة ازدواجية المصطلح في موقف واحد في الاستعمال الغربي: «marque– signe» لما قام بترجمة مقالة عن الأصول السيميائية في فكر «ش.س. بيرس» (1839-1914) إلى العربية، فقد لفت انتباهه ارتباط السمة لدى «بيرس ch.s. pierce» بشبكة من المفاهيم والعلاقات الثّلاثية الأطراف يقيمها على عشرة مبادئ، كلّ مبدأ يتأسّس على ثلاثة فروع كالعلاقة التي تنهض بين الأساس والسمة»[7]، هذا التّصنيف العام للسّمات أقامه «بيرس» من وجهة فلسفية، فتوزّعت من خلاله السمة إلى فئات(مبادئ)، «هي نتاج توزيع ثلاثي ينطلق من ثلاث زوايا نظر: العلامة في ذاتها،والعلامة في علاقتها بموضوعها، والعلامة في علاقتها بالمؤوّل»[8]، ولعلّ ما استخلصه عبد الملك مرتاض من تلك العلاقات (التّوزيعات)، هو ما يمكن أن ينضوي تحت مظلة العلامة (السّمة) في ذاتها، وهي:

- السّمة الوصفيّة (النوعيّة) «Quali signe».
- السّمة الفرديّة (المفردة) «sin singe 2214».
- السّمة العُرفيّة (المعياريّة) «légi signe14».

هذا، وقد تناولها من جهة صلتها باللّغة ودلالتها، حيث رأى أنّها تعادل الرّمز (Symbole) والقرينة Indice)) والإشارة (Signal)، وهو ما يمكن أن يدرج في زاوية السمة في علاقتها بموضوعها. وهي نقطة لمس فيها الدّكتور مولاي علي بوخاتم شيئا من الاضطراب في رؤية النّاقد عبد المالك مرتاض لدى ترجمته مصطلح السّمة إلى مصطلح يعادلها وهو القرينة، كما أنّه لم يقف عند هذا الحدّ بل أضاف لمصطلح القرينة في ثقافة «بيرس» مصطلحين اثنين هما: المؤشر والعلميّة. [9] وما يراه النّاقد كذلك، هو أنّ مصطلح «السّمة» في الفكر السوسيري يقبل بمبدأ وجود اختلاف جوهري بين الدّال والمدلول، من ذلك فاللّغة في نظره «نظام من الاختلافات»[10] أساسها السّمة من حيث

هي دال يثير في الذّهن مدلولا.

إنّ محاولة عبد المالك مرتاض في تحديد طبيعة المصطلح عبر محور الحداثة؛ أي تحديدها من منظور «بورس» الفلسفي، ومن منظور«سوسير» اللّغوي جعلته يتوصّل إلى أنّ اللّغة ما هي إلاّ نظام من السّمات. لم يتوقف النّاقد عند هذا الحدّ، بل عاد يحفر عن ماهية المصطلح (السّمة) ودلالتها عبر محور التّراث، وإنّ كان الفكر العربي لم يتعامل مع السّيميائية كنظرية مؤسسة كما عرفها الفكر الغربي المعاصر، لكن علماء العربية قد لامسوها في كتاباتهم المبثوثة هنا وهناك في ثنايا كتبهم، كما مارسوها عمليا في حياتهم الاجتماعية كوسم الإبل مثلا، والنّاقد بهذا الصنيع يحاول أنّ يكسب الشّرعية لبحثه، فتناول ماهية «السّمة» ودلالتها من منطلق رؤية الجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني.

فقد لاحظ أنّ «الجاحظ» حينما حصر أضرب الدّلالة السيميائية في كتابه «البيان والتّبيين» أنّه ربط الدّلالة باللّغة السّيميائية، كما ربط السّمة باللّغة على نحو ما، في أثناء حديثه عن نظرية «البيان» ونظرية «الإرسال» وقد استدّل النّاقد بشرح «الجاحظ» لنّظرية الإرسال والاستقبال معًا بقوله: «فيرى -يقصد الجاحظ- أنّ الله جعل «اللّفظ للسّامع، وجعل الإشارة للنّاظر، وأشرك النّاظر واللامس في معرفة العقد، إلاّ بما فضّل الله به نصيب النّاظر في ذلك على قدر اللامس. وجعل الخّط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه، وسببًا موصولا بينه وبين أعوانـــــه (...)، ولم يجعل للشّام والذّائق نصيبًا...» [11]

يرى عبد الملك مرتاض في حديث «الجاحظ» التفاتة حداثية؛ لأنّه يتحدث بوعي معرفي بخصوص أنواع التّبليغ السّيميائي؛ حيث أنّه جعل السّمة اللّفظية (المنطوقة) أداة للاتصال بالسّامع (المتلقي أو المستقبل)، فهي سّمة مرقونة، والخطّ (الكتابة) سّمة حاضرة دّالة على سّمة غائبة وهي المعنى، في حين جعل سّمة الإشارة للنّاظر والمعروفة عند النّاقد بالسّمة البصرية[12]، من هذا فهو يعدّ الإشارة واللّفظ متكامليْ الدّلالة لأنّهما «...شريكان ونعم العون هي له، ونعم التّرجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللّفظ، وما تغني عن الخط.»[13]

أمّا «عبد القاهر الجرجاني»، وحسب الباحث فقد آثر اصطناع مصطلح السّمة على مصطلح العلامة، وقد تناولها من منظور لغوي دلالي خالص عندما علّق على هذا التّركيب النّحوي «زيد خارج» من الوجهة الدّالية والمدلولية له بقوله: «فما علقنا منه -وهو نسبة الخروج إلى زيد- لا يرجع إلى معاني اللّغات، ولكن إلى كون ألفاظ اللّغات

سمات لذلك المعنى، وكونها مُرادة بها[14]، من خلال قول «الجرجاني»، يرى النّاقد «عبد المالك مرتاض» أنّ الشّيخ «يجعل هنا السّمة لفظاً دالاً على معنًى يحيل عليه في الخارج، وقَد لحِن إلى أنّ سيميائية التّواصل بين النّاس باستعمال مصطلح السّمة، وأنّها مساوية للألفاظ، بل أمارة على معانيها.» [15]

إلى جانب هذا، فقد اِصطنع الشّيخ مصطلح «الإشارة» لمّا جاء بمثال «خذ ذاك» وهذا التّركيب كما يراه «مرتاض» عبارة سيميائية اختزلت عالما واسعا من المعاني، «ولقد يعني هذا الملفظ، كما هو واضح، الاستغناء عن التّواصل باللّغة الّتي قد يكون الالتحاد إليها في مثل هذا الموقف مضيعة للوقت، ومفسدة للجهد، ففزع المرسل إلى اصطناع لغة الإشارة، لا لغة الألفاظ، فأفْهِمَ وحسَم.»[16]

وأيّا كان مفهوم العلامة، أو السّمة، أو الدّليل، أو الأمارة أو الإشارة، فإنّنا نلفي حقل البحث قد توّسع في ضوء هذه الآراء النّقدية المتصلة بإشكالية مفهوم العلامة ودلالتها لتشمل جهودًا متضافرة طرحت لنا مؤلفات كثيرة حوت متونها طروحات النّظرية الشّكلانية الّتي جعلها الخطاب النّقدي الجزائري قاعدة لتأصيل النّظرية السّيميائية المعاصرة، وهو أمر دفع ببعض نقادنا إلى قراءة التّراث بفكرٍ حداثي.

ولما كان التّراث متعدّد المجالات ومتنوّع الاتجاهات، فقد تعدّدت المقاربات بين اللّغة والنّقد، والبلاغة والعلوم الدّينية، وشكّلت هذه الدّراسات تجارب جزئية متنوّعة تهدف إلى اكتشاف الرّوابط الخفية بين مجالات الفكر التّراثي وصولا إلى وحدته[17]؛ لأنّ التّراث العربي على تعدّده وتنوّعه يظلّ منظومة فكرية موحّدة.

من هذا ندرك، أنّ القراءة مهما كانت واعية ومتخصصّة في وقتنا الرّاهن، تعتبر جزئية وقاصرة في تحديد مفهوم العلامة(السّمة) التّراثية، واكتشاف مدلولها الحقيقي؛ لأنّه ليس من السّهولة بمكان تناول العلامة (السّمة) في كلّ هذا التعدّد والتنوّع. والسّبب في رأينا يعود إلى أنّ كتبًا تراثيةً كثيرةً لم تحقّق بعد، إمّا لاندثارها، وإمّا لاحتكارها من طرف المكتبات العالمية الاستعمارية، وهذا عائق منيع يقف في وجه خطابنا النّقدي، ولو تسنّى لباحثينا ونقادنا جمع ما اندثر منها وعالجوه وأضافوا له ما حققّوه لأَصبح تراثنا اللّغوي كلّه نظامًا من العلامات (السّمات) اللّغوية، يكون فيه «الدّال» و«المدلول» وجهين لحقيقة واحدة، حيث التّراث هو«الدّال» ومدلوله هو بنية نظامه الثّقافي.

ويعدّ «مرتاض» واحدًا من بين النّقاد الجزائريين الّذي تبنى منهجًا شموليًا في تعامله مع العلامة (السّمة)، يجمع فيه بين إيجابيات الحداثة والتّراث، محاولاً الإفادة من القطبين للحديث عن سيميائية العلامة (السّمة) وتصنيفاتها المختلفة. وعبر

محوريْ التّراث والحداثة قام هذا النّاقد بتحديد مفهوم السّمة بنوعيها اللّسانية وغير اللّسانية، وراح يسوق جملة من الأمثلة من خلال معالجته لبعض النّصوص الأدبية (النّثرية والشّعرية) ضمن بعض النّماذج من كتبه كـ: تحليل الخطاب السّردي لرواية «زقاق المدق» من منظور منهج مركب تفكيكي سيميائي، وألف ليلة وليلة، الّذي عالج فيه حكاية «حمال بغداد» من منظور منهج مركب سيميائي تفكيكي، و(أ/ي)، الّذي قارب فيه نصا شعريا «أين ليلاي» من منظور منهج مركب سيميائي تفكيكي، وشعرية القصيدة قصيدة القراءة، دارس فيها قصيدة أشجان يمانية من منظور منهج مركب سيميائي تفكيكي.

- فكيف استطاع «عبد المالك مرتاض» تناول العلامة (السّمة) في مقارباته؟.

سوف نختار نموذجين من تحليلات الباحـــث لهذه الدراسة، أحدهما يتناول نصا شعريا، والآخر يتناول نصا سرديا.

- النّموذج الأوّل: العلامة (السمة) في النّص الشعري:

لقد قام النّاقد في كتابه (أ/ي) بمقاربة النّص الشّعري «أين ليلاي» ل«محمد العيد آل خليفة» بغية «الكشف عمّا يمكن أنّ يكون فيه من الخفايا والكوامن، بتفكيك بناهُ الدّاخلية وملاحظة الشّفرات والعلامات التي تطبع لغّته، وتحدّد دلالته وتتحكم في خطابه.»[18] والّذي يلفت انتباه القارئ عنوانه الغريب؛ الذي لم يحدث -في حدود اطلاعنا- أن اصطنع باحث عربي مشرقيا كان أم مغاربيا عنوانا مثله، وهذه من بين ميزات «عبد الملك مرتاض» الطامحة دوما وبلا كلل للتفرد، فتراه لا يستأنس بما هو موجود من دون مساءلته ومراجعته؛ ليتحدّد له من بعد ذلك قبوله كما هو، أو مخالفته، أما هذا العنوان الذي شكّله، وإن كان متناصا فيه مع عنوان s/z لـ «رولان بارت»، فإنّه يمثّل عتبة نصية، وسمة دالّة من حيث بنيته وإنتاجيّته، وطاقته الرّمزية، وكذا حمولته التّعبيرية. الأمر الّذي دفع «مرتاض» من أنّ يتخذ من عنوان كتابه (أ/ي) سمّة دلالية سيميوطقية رامزة؛ لأنّ الرّمز هو سمّة السّمات؛ «أي العلامة الّتي تنتج قصد النّيابة عن علامة أخرى مرادفة لها...»[19] من هنا كانت قراءة «مرتاض» للعنوان تأويلية، فتساؤل الشّاعر عن «ليلاه»، دفع بالنّاقد للبحث عن الرّمز (سمة السّمة) المتمثّل في «ليلى»، «والحديث عن ليلى في نص شعري عربي في هذا السّياق يعني أسطرته»[20]؛ لأنّ «ليلى» لها دلالة عميقة في التّراث وتعني ليلى/الأسطورة، ليلى/التّاريخ ومن خلال هذا العنوان خلُص «مرتاض» إلى أنّ النّص تحكمه شبكة من العلاقات والمعطيات والقيم، حيث تتجلى لنا تلك العلاقة الفاعلة بين موضوع النّص الشّعري والشّخصية الشّعرية

والمتجسدة في عنصر الحرمان.[21]

لقد تبيّن للنّاقد -وهو يرصد ما ورد في النّص من سمات لسانية للبحث في دلالتها-، أنّ تكرار السّمة «ليلى» إمّا كمفردة أو كضمير يعود عليها على لسان الشّاعر، فهو لم يتوقف عن طرح الأسئلة الحيرى عن «ليلى» رمز الحرية، وكأنّها شيء بعيد المنال، فيخيم عليه اليأس والانكسار. وفي هذه النّقطة يستحضر النّاقد قول الشّاعر:

لمْ يُجِبْنِي سوَى الصَّدَى ❖ أيـــنْ لَيْلاَيَ ؟ أَيْنَهَا؟

والواقع أنّه يستخلص من معنم «الصّدى» سمّة صوتية يُمثّل فيها السّمع وحده الأداة الواسطة بين الشّيء المسموع، والشّيء المنبثق عنه، في تكوين الادراك وهُنا «العلاقة المدْرِكَة لها هي سمع الشّخصية الشّعرية، أماّ الفاعل أو العالَمُ الخارجيّ، أو صاحبُ الصّوت، وهو هنا، على كلّ حال، غيرُ حقيقيّ، فلا نعرفه، ولكنّ «الصّدى» كان سمة له استطاع أنّ ينقله من حال الغياب إلى حال الحضور.»[22] ودلالة «الصّدى» في الشّعر من المنظور السّيميائي تأتي لتعبّر عن موقف يمتزج فيه الوهم واليأس والخيبة، وهذا ما يفسرّ لنا خيبة أمل الشّاعر في العثور على ليلاه (الحرية).

إنّ سعي النّاقد «عبد المالك مرتاض» إلى تحليل النّصوص، وفق الإجراءات السّيميائية والّتي أهمها «السّمة» (العلامة)، كان الهدف منها تلطيف الذّوق العربي في فهم الظّاهرة الشّعرية. وعليه، استحالت السّمة (العلامة) في التّراث، مفهومًا ودلالةً إلى قطب منير، تهتدي به القراءة السّيميائية في الخطاب النّقدي المعاصر.

- النّموذج الثّاني: العلامة (السمة) في النّص السّردي:

لقد قارب النّاقد «عبد الملك مرتاض» حكاية «حمال بغداد»؛ وهو نص سردي مأخوذ من رائعة «ألف ليلة وليلة»، والتي شغلت حيّزًا زمانيًا مقدرًا بعشر ليال؛ أي من اللّيلة التاسعة إلى اللّيلة التّاسعة عشر، على ضوء منهج مركب سيميائي-تفكيكي، يهدف إلى تحديد المميزات اللّسانية والسّيميائية والتّفكيكية للنّص من خلال دراسة وحداته الخارجية المشكّلة لعلاميتها، بدراسة نسيجه اللّغوي وتشريحه من حيث الحدث والشّخصيات والحيّز والزّمن وتقنيات السّرد وبنية الخطاب والمعجم الفّني؛ كي يتسنى للباحث تحديد الرّؤية وبناء النّتائج المترتّبة عن المقاربة.

ولعلّ «عبد الملك مرتاض» قد حدّد رؤيته وخرج بنتائج تدحض بعض المسلمات، الّتي كانت ترى أنّ حكاية «ألف ليلة وليلة» انصهار لثقافات العرب والهند والفرس وشعوب لا حصر لها. وأنّها مجهولة المؤلف، وأنّه- أقصد مؤلّفها- يكمن في الذّاكرة الجمعية للشّعوب، ليُثبت طابعها العربي الخالص من حيث واحدية مؤلفها،

فهو «بغداديّ الدّار، رشيديّ العهد، عربيّ الثّقافة، وطنيّ النّزعة، كأنّه كان مندسًّا في بعض قصور هارون الرّشيد، حتّى كأنّ هذه الحكايات إنّما كانت ضربًا من الدّعاية العظيمة لشّخصية هارون الرّشيد وحِلْمِه وكرمِه وتواضعه وعدله وظرفه وأدبه فمعظم الحكايات تنطلق من مدينة بغداد وتنتهي إليها...»[23] وانطلاقًا من تتبعه ألفاظ/سمّات الحكاية من بداية السّرد إلى نهايته، لاحظ النّاقد انشغال ذهن السّارد بتكرار ألفاظ (سمّات دنيا)، وعبارات بعينها (سمّات مركبة)، لا يكاد يحيد عنها في مواقف عاطفية وفكرية متشابهة، وقد جاءت هذه الملاحظة «بطريقة تشبه المصادفة في بداية الأمر ثمّ بدافع حبّ الاستقراء والتّطلع المعرفي الخالص»[24]، لذا تساءل طويلا عن كيف يتعدّد هؤلاء المؤلفون، وتتوّحد اللّغة الفنية للسّرد؟ بتكرار عبارات بعينها من بداية السّرد إلى نهيته، وبتوّحد المواقف، وتشابه الشّخصيات على امتداد اللّيالي واختلافها[25]، وأمام هذه الأسئلة ينتهي إلى إثبات الوحدة السّردية التي تميّز الحكاية بدحض فكرة تعدّد المؤلفين، وحصر معالم الوحدة الفنية كما يلي:

- الشّكل السّردي (البناء العـــام للحدث) .
- وحدة اللّغة الفنية واتفاق أسلوبها لدى الوصـــــــــف، وذكر المواقف التّاريخية أو العاطفيـــــــــــــــة المثيرة .
- ترداد عبارات منذ بداية السّــرد إلى نهايته.
- غطرسة الشّخصيـــــــــات والأدوار.
- بياض الحدث والجنس في النّص الحكائي.

إنّ هذه النّتائج التي استوحاها النّاقد من حكاية «حمال بغداد»، تشكّل نموذجًا تقاس عليه جميع «حكايات ألف ليلة وليلة»، وإنّ كان كذلك، فهي جزء من نظام ثقافي عام، لا يمكن فصلها عن أنماط السّلوك والتّصورات الخاصّة وبنية الأمكنة والأزمنة، وكلّ ما يدخل في تشكيل هذا النّظام، فتغدو مدلولا (signifie) متحوّلاً عن طريق السّمطقة*[26] إلى نسق لغوي دال (signifiant).

من هذا، نلفي أنّ النّاقد «عبد المالك مرتاض» على وعيٍ معرفي تام بخصوص تحوّل نصوص هذا الأثر التّراثي من أنظمة لغوية (سمّات دنيا ومركبة) إلى أنظمة دالة أو سمات كبرى (سمّات الخطاب)، منتقلة من دال اللّغة إلى مدلول الثّقافة؛ إذ أنّ الدّلالة لا تُنتج من الألفاظ/السّمات، ولا من التّراكيب/النّحو وحدها، بل تُنتج من خلال تحويل «الدّلالة الكلية، النّاتجة عن تفاعل دلالات الألفاظ، وعلاقات التّركيب إلى 'عملية كلية' تميل إلى دلالة أخرى»[27]، ذلك أنّ نصوص هذا الأثر التّراثي توارثها العرب جيلاً بعد جيل في شكل مخطوط، والخط أو الكتابة، ما هو إلى سمة تبليغية،

وكما سبق وعرفنا، فقد اِعتبرها «الجاحظ» مظهرًا سيميائيًا يتمّ بواسطته التّواصل والتّفاهم بين النّاس على تباعد الزّمان وتنائي المكان.[28] وحديث «الجاحظ» عن سمة الخط -كما يراه النّاقد- جاء متقدّما عن حديث النّظريّات الغربيّة بخصوص سيميائية الكتابة « La sèmiologie de L'écriture » بقرون من الزّمان. [29]

والنّاقد ههنا، ومن خلال ثقافته التّراثية المكينة، وتشبّعه بطروحات النّظريّات الغربيّة، استطاع تحديد سيميائيّة الخط حيث يرى أنّه «...في أيّ صورة اِعتبرته فيها؟ أو صرفته إليها كان سمة (sign signe). وقد يختلف صنف هذه السّمة بحيث يمكن تصّنيفها في صنف المماثلات (icones) [...] أوفي صنف المؤشّرات أو القرائن (indices) بل وربما في صنف الإشاريات (signaux) أيضا فكلّ ممكن.»[30] في حين يبقى ما قام به النّاقد «عبد المالك مرتاض» -حسب أحد الباحثين- من تعديلات وإضافات لا يكاد يتجاوز شرحًا لفكرة غامضة لدى النّقاد الغربيين، أو إعادة صياغتها بلغةً ولمسة عربيتين، وإماّ أنّ هذه الفكرة تناولها الأجداد في تراثها العربي فأراد أنّ يُحْيِيها[31]؛ أي أنّ اِجتهادات النّاقد ما هي إلاّ شرح ومحاكاة، وهي نظرة نحسبها قاصرة، لأنّ قراءة التّراث وغربلته من جهة، والتّطلع على منجزات العقل الغربي من جهة أخرى في محاولة خلق انسجام بين ثنائية التّراث والحداثة لن تتحقق إلاّ على يد ناقدٍ حصيف، وقارئ متمرس، وهما صفتان تجلّتا في شخص النّاقد «عبد المالك مرتاض»؛ إذ أنه يسعى من خلال هذا الصنيع المساهمة في إرساء معالم مدرسة نقدية عربية، ترتكز على أصول وقواعد تراثية، تتواشج وتتعالق مع ما استحدثته النظريات الغربية. وعليه، تغدو التّجربة المرتاضيّة -بهذا المعنى- غير مقتصرة في تحليلها للخطابات الشّعرية والسّردية على المنجز من الموروث النّقدي، بل تجاوزت ذلك إلى فضاءات الثّقافة الغربية والتّفاعل معها، والأخذ منها وتمثّلها بتمكّن، ورأي «مرتاض» هو «أن نفيد من النّظريات الغربية القائم كثير منها على العلم، كما نفيد من بعض التّراثيات ونهضم هذه وتلك، ثمّ نحاول عجن هذه مع تلك عجنا مكينا، ثمّ من بعد ذلك نحاول أن نتناول النّص برؤية مستقلة مستقبلية.»[32] وإذن، فبمراعاة خصوصيات الشّعر والسّرد العربيين، باتت جهود «مرتاض» موفّقة ترمي إلى تشيّيد مشروع نقدي، الذي أصبح المنجز منه في مجالي التّنظير والتّطبيق جديرا بالدّراسة والتّحليل.

هوامـــــش المقال:

(1) عبد الملك مرتاض: نظرية النّص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص.ص:147-146. وينظر كذلك: عبد الملك مرتاض: بين السمة والسيميائية، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، الجزائر،ع2، يونيو 1993، ص: 10.

(2) عبد الملك مرتاض: نظريـــــــــــــــة النص الأدبي، ص: 147.

(3) نفسه، ص: 147.

(4) نفسه، ص: 149.

(5) ينظر: مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميائي المغاربي -دراسة وصفية نقدية احصائية- في نموذجي عبد الملك مرتاض ومحمـد مفتاح، د.م.ج، الجزائر، 2005.، ص.ص:125-124.

(6) عبد الملك مرتاض: نظرية النّص الأدبي، ص.ص: 149-148.

(7) المرجع نفسه ،ص: 149.

(8) أمبرتو، إيكو: العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه، تر: سعيد بنكراد، وراجع النّص: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1428هـ- 2007، ص: 109.

(9) ينظر: مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميـــــــــائي المغاربي، ص: 125.

(10) عبد الله محمد الغذامي: الخطيئة والتفكير، من البنيوية إلى التشريحية (déconstruc-tion)، قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر، مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية، النادي الأدبي الثقافي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1405هـ1985-م، ص: 30.

(11) عبد الملك مرتاض: نظريـــــــــــــــة النص الأدبي، ص: 167.

(12) ينظر: نفسه، ص: 167.

(13) ينظر: أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق د. علي أبو ملحم، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، المجلد1، ط1، 1408هـ- 1988م، ج1، ص:55 .

(14) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح. محمد رضوان الداية وفايز الداية ، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط.2، 1407هـ1987-م ، ص: 416 ، وينظر: عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبـــــــــــــــــــــي، ص: 169.

(15) عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، ص: 170.

(16) المرجع نفســـــــــــــــــــه، ص: 170.

(17) ينظر: نصر حامد أبو زيد: إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان ، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 1999م ، ص: 05.

(18) عبد الملك مرتاض: أ/ي، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة «أين ليلاي» لمحمد العيد آل خليفة، د.م.ج، الجزائر 1992ص: 34.

(19) الحبيب مونسي: القراءة والحداثة، (مقاربة الكائن والممكن في القراءة العربية)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2000، ص.ص:-233 234.

(20) عبد الملك مرتاض: المرجع السابق، ص: 96.

(21) ينظر: نور الدين السّد: الأسلوبيــة وتحليل الخطاب، دار هومة للنشر، الجزائر، ج2، 1997، ص: 136.

(22) عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة قصيدة القراءة (تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية)، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط01، 1994، ص: 235.

(23) عبد الملك مرتاض: ألف ليلة وليلة تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعيــة، الجزائر، 1992، ص: 232.

(24) عبد الملك مرتاض: ألف ليلة وليلة، ص: 230.

(25) ينظر: المرجع نفســــــــــــه، ص: 231.

(26) «السمطقة» semiosis: تعني «عملية التّوليد المعنى المجازي» أو كما يعرف بـ: «التوليد السّيميائي»، ينظر: شولز روبرت: السيمياء والتّأويل، تر: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،ط1، 1994، ص: 244. ينظر كذلك : أمبرتو إيكو : العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه، ص: 46.

(27) نصر حامد أبو زيد: السلطـــة، النّص، الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2000، ص:217.

(28) ينظر: عبد الملك مرتاض: الكتابة من موقع العدم، مساءلات حول نظرية الكتابة، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، وهران، الجزائر ، 2003، ص: 111.

(29) ينظر: المرجـــــــــــــــع نفسه، ص: 113.

(30) نفســــــــــــــــــــــــــه، ص: 113.

(31) ينظر: بن علي خلف الله: النقد السيميائي في الجزائر -اتجاهاته وأصوله- (مخطوط) رسالة ماجستير، جامعة سيدي بلعباس، -2007 2008، ص: 52.

(32) عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية «زقاق المدق»، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص :12.